حول لاعقلانية الفلسفة

بقلم الدكتور حسام محيي الدين الالوسي

ليس هذا المقال دعوة الى اللاعقلانية ، كما قد تعكس مطالعة العنوان لاول وهلة ، انما هو محاولة لتحري الاصول اللاعقلانية للفلسفة المثالية على وجه الخصوص ، وهو كذلك او بسبب ذلك محاولة لمعرفة ما تدين به للانسان البدائي ، وهو فوق هذا وذاك جهد لمعرفة الى اي حد يمكن ان تكون الفلسفة مرادفة « للعقلانية » : هذا هو الهدف الرئيسي ، ولكن القارىء سيواجه من خلال البحث معالجة لمسائل اخرى تطلبها الموضوع مثل اهمية اعطاء تعريف للفلسفة يتناسب مع محاولة ربطها بالفكر البدائي ، ومناقشة امكان تحديد نشأتها بالقرن السادس ق. م. وعلى العموم فهذا البحث هو صدى للصيحات المتجاوبة في ارجاء الفكر الاوروبي طيلة القرون المتأخرة ، وابتداء ب « كانت » ، والتي نجدها على غاية من الوضوح عند فيلسوف عميق مثل جون ديوي في كتابه « تجديد في الفلسفة » (١) ، هذه الصيحات التي نتج عنها انعطاف عن « الميتافيزيقا » (٢) ومشاكل الفلسفة الكلاسيكية التي لا طائل تحتها الى العلوم العملية ، والفلسفات الواقعية العلمية ، في وقت يعاني منه الفكر العربي التشتت وغموض الرؤيا وتتخبط بنا فيه دوامة من الصراع ، ابرزه الصراع بين القديم بقيمه وفلسفته وخيالاته وبين الجديد الذي يقدم قيما وفلسفة ، وآمالا هي من تلك بديل النقيض بالنقيض .

***

ولكي ندخل الموضوع من ابوابه ينبغي ان نعرف بادىء ذي بدء المقصود بالفلسفة ، وأبادر فانبه الى انني لا اريد الدخول في تفاصيل تعاريفها التي اعطيت لها عبر العصور ، والا نكون قد خرجنا عن القصد الذي طلبناه من هذا البحث ، واذا كان الامر كذلك فانني لا اريد ان اقف على واحد من تعاريفها ، وان كان اشهرها ذيوعا واطولها عمرا اعني بي محاولة التعرف بالفلسفة استنادا الى المعنى الاشتقاقي بارجاعها الى اصلها اليوناني لغة (٣) ، بمعنى « محبة الحكمة » او « محب الحكمة »، ذلك انه تعريف لا يفيد شيئا نستدل به على موضوعها او طريقتها او هدفها ، وكلمة « الحكمة » نفسها شيء غامض ونسبي ومتغير ، فما يراه الناس حكمة يختلف زمانا ومكانا ، وكلما اختلف الناس بعضهم عن بعض في العقائد والافكار وفي غير هذه وتلك ، فما يراه المتدين حكمة هو غير ما يراه « المتشكك » وقس على ذلك .

كما أنني لا اريد ان اقف عند معظم التعاريف الاخرى للفلسفة ، فقد طالت قائمة هذه التعاريف حتى ليمكن القول على سبيل الحقيقة لا المجاز ، ان لكل فيلسوف تعريفه للفلسفة ، مع أن معظم هذه التعاريف لا تفي بالغرض ، لانها اما ان تحاول تعريف الكل بالجزء بقصرها - اي قصر الفلسفة - على « الفلسفة الاولى » كما يفعل معظم قدامى الفلاسفة من يونان ومسيحيين ومسلمين كما يتضح ذلك من تقسيمهم للعلوم (٤) ، واما انها تتجه الى تعريفها باعتبارها منهج بحث ، أو بقصرها على فرع من فروعها الاخرى (٥) .

ولعل اهم التعاريف لفتا للنظر وصلة بموضوعنا هذا التعريف الذي يؤثره « رابو بورت » (٦) وفيه يجعل الفلسفة هي الفكر او هي مرادفة له ، وهذا تعريف واضح ، ولكنه يحتاج الى تحديد اذ ان الفكر حظ مشترك بين الانسان والحيوان ، وهو موجود بشكل او بآخر عند البدائيين (كما سنوضح) ، بينما يميل البعض الى أن الفلسفة ليست فكرا وكفى ، بل فكرا متطورا منظما لم يصل اليه الانسان الا بعد القرن السادس ق. م. (وهو ما سنناقشه) ، ومن جهة اخرى يمكن القول انه ليس كل فكر فلسفة ، ليس على اساس تطلب عمق مستوى معين حتى يكون الفكر فلسفة ، بل على اساس أن الفكر منه مخصوص، او جزئي ، ومنه عام ، ولاضرب لتوضيح الخصوصية والعمومية هنا ، مثلا : اذا انقطع التيار الكهربائي مرارا ، واكثرت بشراء شمعة ، فهذا فكر ، ولكنه ليس فلسفة ، وازاء ذلك فلا مناص من القول بان الفلسفة هي فكر ذو ابعاد شاملة تتعلق باكثر من مشكلة ، ومعنى ذلك أن الفلسفة هي « ايديولوجية » الانسان التي منها وبواسطتها ينظر الى الاشياء ويقف ازاءها مواقف خاصة ، ومنسجمة بعضها مع بعض . ومعنى هذا ان الفلسفة « موقف » ، وهذا الموقف - مخففين بذلك من غلواء الفكر المجرد - ليس نتيجة لعملية التفكير المنطقي للانسان فقط ، بل هو نتيجة لمجموع قواه البدنية والنفسية والفكرية متفاعلة مع المحيط الاجتماعي والطبيعي خارج « الكائن » . ونحن بتأكيدنا على أن الفلسفة « موقف » نجعل الانسان وجها لوجه معها ، لا يستطيع ان ينفك عنها ، ولا ان يحصرها بمفهومها القديم - كنمط من التفكير المنطقي - في اروقة معينة ، او على جماعة مخصوصة من الناس ، فكل انسان في كل صغيرة او كبيرة من امور دنياه يتخذ موقفا ، وسواء كان الانسان مدركا لمواقفه، مقتنعا بها بالدليل والبرهان ، أو كان يعيشها كنوع من التقليد والعادة والمشاركة للاخرين ، فان مواقفه هذه هي فلسفته ، وهي في الوقت ذاته انعكاس لواحد من مذهبي الفلسفة ، المذهب الروحي ، أو المذهب المادي واذا تتبعنا سلوك اي انسان لما خرج عن هذه القاعدة . ومع أن اكثرية الناس يتصرفون بحكم العادة والتقليد فان مواقفهم تصدر - مع انهم لا يعون ذلك - وفقا لاطار فلسفي جاهز ، مادي أو روحي او ما بين الاثنين ، ومن هنا تظهر قيمة الفلسفة باعتبارها بعدا مثل الزمان والمكان ، لا انفكاك للانسان عنه ، ولكن هذه القيمة تتضاءل حينما نقصر الفلسفة على معناها الاشتقاقي أو الاكاديمي المعروف ، ومن هنا فانه ليس من المبالغة في شيء القول بان الصراع عبر التأريخ البشري كان وما زال له مضمون فلسفي ، الى جانب مضامينه الاخرى ، وهذا الصراع كان - وربما سيبقى الى امد بعيد - صراعا بين المثالية والمادية ، وليس من فلسفة او مذهب ينكر اثر « الفكر » واهميته في توجيه الانسان والحضارة ، وحتى « الفلسفة المادية العلمية » - على عكس ما يشاع عنها - كما نجد في رسائل ماركس وانجلز ، تؤيد ذلك ، ولكنها تصر على ان الجانب المادي (الظروف المحيطة بالكائن ، والوضع الاقتصادي والتكوين البيلوجي ... الخ) هو ارضية الافكار المتساوقة مع ذلك الجانب ، ولكن هذه الافكار تعود تفعل فعلها ايضا ، فمثلا : فقدان العدالة ، واستجداء الطبيعة والخوف منها ، والرغبة في الخلود ، والحياة السعيدة ، هي ارضية معظم الافكار والاعمال الدينية والميتافيزيقية ، مثل العبادات ، والايمان بحياة اخرى ... الخ ، ولكن هذه الافكار اصبحت قوية التأثير في تلوين نظرة المجتمعات المؤمنة بها حتى اصبحت اكثر اهمية من الحياة الارضية نفسها ، وصار الانسان المؤمن بها يتحمل الوان الظلم والفقر كثمن وكفارة - واحيانا كوسيلة - للحصول على سعادة وخلود دائمين بعد الموت .

ان اعتبار الفلسفة موقف ، يدخلنا في مشاكل متعددة تحتاج الى ايضاح ، ويثير زوابع من النقد لا حد لها ، وابادر قبل الدخول الى هذه المشاكل والانتقادات الى زيادة الطين بلة ، فاؤكد المعنى بمزيد من الوضوح يحدد أبعاد هذا التعريف وطبيعة الفلسفة كما افهمها ، واقول : ان الفلسفة باعتبارها موقفا عاما ووجهة نظر موحدة ، تحتضن كل موقف حتى مواقف البدائيين (عبادتهم للطبقة ، للاجداد ، للارواح ... الخ). نعم قد لا يوجد « ادراك » و « تفهم » او شيء من المنطقية الصورية في تلك المواقف ، ولكنها مواقف على كل حال ، واطار عام يحدد سلوك الفرد والجماعة من المشاكل التي كانوا يعانونها ، والتي ما زلنا نعاني بعضها بتبصر اكثر نتيجة لتجمع الخبرات وفرز الاخطاء عبر سلسلة من المتاهات مرت بها الانسانية ، كما تفعل الفئران في متاهات التجارب التي يهيؤها لها الباحثون . وعلينا الا نبالغ في الفصل بين تلك « المواقف البدائية » السحرية وبين المواقف التي نعتبرها منطقية مبررة في الوقت الحاضر ، فان كثيرا مما يعتبر منطقيا و « معقولا » عندنا هو مجرد « نوع من الخيال » و « الخرافة » كما ان الفلسفة المثالية برمتها عند « فيلسوف مادي » لا تعدو كونها هراء ، والعكس صحيح ايضا بالنسبة للمثالي .

وقد يثير هذا القول نقدا مفاده : انني لم اميز ـ كما هو الشائع ـ بين الفلسفة كحركة عقلانية منطقية وبين مواقف البدائيين والناس العاديين التقليدية التي دفعتهم وتدفعهم اليها الدوافع الفطرية والعادات والاعراف الاجتماعية . وانا مدرك لهذا الاعتراض وكان في ذهني وانا اكتب هذا البحث ، واقول ابتداء ان ما يسمى « عقلانية » هو شيء لا يشكل الا جزءا يسيرا من مواقف الانسان منذ ان وجد حتى اليوم .

يقول ادوارد كلود : « ان الدور القليل للمحاكمة العقلية الذي تلعبه في السلوك لهو اكبر دليل على المدة الطويلة التي مر بها الانسان في ادوار ما قبل العقل ، فمثلا العواطف التي هي اول الامر كانت نتيجة للدوافع الفطرية ، والتي هي اساس الفعاليات العقلية ، تظهر نفسها مسيطرة بصورة دائمة ، وفيما يلي امثلة على اللاعقلانية : يذكر هيرودوت كيف ان داريوس سأل بعض الهيلينيين قائلا : باي ثمن يمكنهم ان يأكلوا آباءهم عند موتهم ، وانهم اجابوه : ليس هناك اي ثمن يجعلهم يفعلون ذلك . وبعد ذلك دعا بعض الهنود الكالتيانس Callatians ، والذين تعودوا أكل والديهم ، وسألهم امام الهيلينيين : ما هو الثمن الذي يمكن ان يجعلهم يحرقون اجسام والديهم عندما يموتون ، وبعد ان رفعوا اصواتهم ، طلبوا منه ان يكف عن قول هذه الاشياء . ويعلق هيرودوت قائلا : هكذا فان هذه الاشياء انما اسست على العرف ، واعتقد ان بندار قال الحق في شعره عندما قال : العرف ملك الجميع ... ، ويذكر ارازمس قبل اكثر من اربعمائة سنة : سمعت ان مخلوقين تعيسين سيعدمان في فرنسا لانهما أكلا لحما في الصوم الكبير عند المسيحيين Lent » (٧)

وفي عادات الناس واعرافهم وعباداتهم قبل التاريخ وبعده ، وحتى اليوم ، امثلة لا تحصى على « اللاعقلانية » مثل تقديم القرابين البشرية، والعبودية ، والحروب ، وحرمان الاجنبي ـ خارج العشيرة او القبيلة ـ من جميع حقوقه كانسان ، والامثلة كثيرة ويكفي ان نأتي بهذا المثال حتى تاريخ استعباد المرأة الطويل : « كان للاب الالماني العادي سلطة بان يسلب اطفاله الموت او الحياة ، فهو مثلا يستطيع ان يرمي طفله جانبا قبل الرضاعة ، ويستطيع ان يبيع أولاده وزوجته كعبيد . وحتى في القرن السابع الميلادي اعترفت الكنيسة بحق الاب في ان يبيع ابنه تحت سن السابعة كعبد ، وحتى القرن التاسع الميلادي كان من حق الزوج ان يقتل زوجته لاسباب وجيهة ، وفي عهد قسطنطين اعيد للاب حق بيع الطفل عند ولادته فقط ، وظهر بيع الزوجة في Cologne في القرن الحادي عشر ، وفي نفس القرن اصبح ممنوعا بيع المرأة لرجل لا تحبه (٨) .

على ان خط العقلانية يسير صاعدا كلما ازدادت معرفتنا بالطبيعة وسيطرتنا عليها ، وكلما تقدمت خبرتنا وتجمعت كما وكيفا ، وقد حققت الانسانية تقدما ملموسا في هذا السبيل خلال القرنين الماضيين ، اما قبل ذلك فالفلسفة الميتافيزيقية ، على وجه العموم ، ومعظم فلسفات ما بعد عصر النهضة ، وبعض اتجاهاتها في العصور الحديثة ، خرافية يمكن ان نجد أصولها في انماط تفكير وسلوك الاقوام البدائية . (٩)

ان هذه الاعتبارات واعتبارات اخرى تجعلني ابادر الى القول ـ وقبل ان ابين كل ابعاد المسألة ودوافع هذه المبادرة ـ بانه اذا اصررنا على حصر كلمة فلسفة فيما هو « عقلاني » او « علمي » فان النتيجة هي اخراج معظم ما نسميه « فلسفة قديمة » ومعظم ما نسميه فلسفة وسيطة وحديثة من دائرة الفلسفة ووضعه ضمن كلمة « خرافة » او ما يشبه ، ومن الخير الا نغامر هذه المغامرة المشوشة من اجل الحفاظ على تعريف قاصر ، ومن الخير اذن ان نجعل كلمة فلسفة شاملة للمواقف الانسانية كلها مثالية او مادية ، سحرية او علمية ، وسواء قامت على العلم البحت ام على التأمل وبقايا تركات تفكير وعادات الشعوب البدائية ، على ان نرجع اذا اردنا معرفة اي المواقف اوثق صلة بالمراحل البدائية وايها اقرب الى العلمية، الى العلوم الحديثة وخصوصا علوم الطبيعة والانثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي وعلوم النفس المختلفة ، لتكون حكما ، وبهذا نستطيع ان نعرف اي وجهات النظر بين مدارس الفلسفة المثالية والمادية علمي وانها ليس كذلك ، فمثلا اذا اردت ان انظر في موضوع هل القيم مثل السرقة ، مطلقة ام نسبية ؟ اتجه ـ بدلا من التأمل والافتراض والتمني كما كان يفعل الفيلسوف الكلاسيكي المثالي ـ الى العلوم الاجتماعية وعلوم دراسة الشعوب والحضارات المقارنة وستجدها تضع بين ايدينا معلومات كثيرة عن حياة الشعوب البدائية وانماط السلوك والقيم التي واكبت كل حقبة وكل مجتمع بحيث لا يبقى شك امامنا ان القيم الخلقية نسبية وانها تستمد وجودها من انماط سلوك البدائيين وانها تحقق من خلال تجمع الخبرات واختلاف وتوسع المجتمعات افقيا وعموديا توسعا في مفهوم القيمة ، (١٠) ونفس الشيء يقال عن تفكير الانسان وعلومه وفنونه ، فمثلا تظهر لنا الدراسات الاجتماعية بمفهومها الشامل ان ما نسميه بالمقولات والمبادىء المنطقية مثل مبدأ الذاتية ، وعدم التناقض ، والبديهيات العقلية ، والتمييز بين الذات او الجوهر والصفات ، والمادي واللامادي ، والجامد والحي ، والانا والغير ، والعلة والمعلول ، والمسؤولية الفردية والجماعية ، كل هذه لم تكن معروفة في المجتمعات البدائية وانما وصل اليها الانسان تدريجيا ـ كما سنبين ـ . ويخبرنا دارسو هذه الشعوب عن امور كثيرة تدل بمجموعها على ان الانسان بدأ ـ ككائن اجتماعي ـ في مستوى الحيوانية العليا ثم راح عن طريق الخبرة يوسع مكتسباته ويحذف ما لا يلائم حتى وصل الى ما وصل اليه اليوم ، ومثل هذه المقالة لا تصلح لاكثر من لفت النظر الى هذه النقطة وليس من الممكن هنا وصف خطوط هذه العملية ولا حتى الاشارة الى خيوطها المعقدة والمتشابكة .

لقد كانت النظرة القديمة سواء في الفلسفة او في علم البيولوجيا وعلم النفس ترى ان سلوك الانسان المتميز عن سلوك الحيوانات لا يمكن ان يفسره الا افتراض ان العقل البشري يختلف عن عقل الحيوان اختلافا نوعيا جذريا حادا . وذهب الاخلاقيون يفترضون ان في الانسان الى جانب العقل ـ وبعضهم اكتفى بالعقل ـ حاسة سادسة فطرية تجعله يميز تمييزا فطريا مباشرا غير معتمد على التجربة والاكتساب ، بين الخير والشر . (١١) وقد وجهت لهذه النظرة بشكليها ـ العقل والحاسة السادسة ـ ضربة قاضية عندما ظهر كتاب هربرت سبنسر : « مبادىء الاخلاق » (Principles of Ethics) وكتابه الآخر : « مبادىء علم النفس (Principles of Psychology) وكتاب دارون : « تحدر الانسان » (Descent of Man) ، خصوصا في الفصل المسمى : مقارنة بين قوى الانسان العقلية والحيوانات السفلى » حيث اظهر مقدار الصلة والتشابه بين سلوك الحيوانات السفلى العقلي وسلوك

الحيوانات العليا ، وكما يقول Baldwin : ان نشوء العقل في مراحله الاولى وفي بعض خطوط تطوره ينعكس بصورة واضحة في الحيوانات ، وبذلك زال الخط المصطنع الذي كانت النظريات السابقة تفترضه بين الانسان والحيوان ، والذي تعبر عنه الالفاظ التالية : الفعل المنعكس ، الفعل الغريزي ، العقل ، واظهرت هذه الدراسات انه في الحوفز الواقعة على الكائن من الخارج وفي ردود فعله من الداخل يكمن تفسير التطور والتقدم الذي يربط الانسان والحيوان والنبات (١٢) .

***

لقد تسلمت الفلسفة المثالية منذ نشأت بشكلها القوي المنطق على يد سقراط وافلاطون ومن جاء بعدهما افكارا واعتقادات هي نتاج ملايين السنين قضاها الانسان في مختلف المجتمعات والازمنة ، ولم يكن فكر ارسطو ولا منطقه نابعا من لا شيء ، بل من خطأ وصواب ، تخيل وتجريب الجنس البشري قبله (كما سنوضح) ، والنقطة المهمة هنا ليس الفكرة الاعتيادية عن استفادة الخلف من السلف ، بل هي تحديد الى اي درجة تستمد الفلسفة الكلاسيكية المتطورة على يد افلاطون ومن جاء بعده جذورها بل ومعينها من عصور ما اعتاد المؤرخون تسميته ب « ما قبل الفلسفة » . وهذه نقطة حيوية لانه عليها يعتمد تقييم الفلسفة في كل عصورها ، وهي الفيصل في ترجيح تعريفها بانها « موقف » او ترجيح تعريفها بانها ليس كل موقف بل هي الموقف المعقول المنطق فقط .

ولنعد مجددا الى الفرق بين الانسان والحيوان : ان جهل الباحثين ـ قبل ازدهار وظهور العلوم الاجتماعية المقارنة والانثروبولوجية والنفسية الحديثة ـ بافكار وعقائد المجتمعات البدائية كان يجعلهم يعتقدون بان عقل الانسان كما يظهر في مراحله العليا ، منذ الفي سنة او حتى منذ اختراع الكتابة ، يشكل قفزة عن عقل الحيوان كما نعرفه اليوم ، ولذلك اعتقدوا بان الفرق بين الانسان والحيوان ليس فرقا درجيا ، بل انه فرق قاطع ، بل اعتقدوا انه لا وجه للمقارنة فان عقل الانسان وتصرف الحيوان حقلان منفصلان ونوعان ثابتان محددان والنوع اي نوع ، ثابت ، ولكل نوع حده ثم يقف لا يتعداه ، وقد اخذوا بنظرية قد تبدو لاول وهلة تطورية تقرب من نظرية التطور بعد دارون ولامارك ، فمثلا ارسطو وفلاسفتنا المسلمون ، تحدثوا عن المعادن ، والنبات ، والحيوان والانسان ، وكانها تصعد في سلم تطوري ، بعضها الى مرحلة البعض الآخر الاعلى منها ، ولكن التعمق في النصوص والاخذ بنظر الاعتبار مجموع فلسفتهم الميتافيزيقية والطبيعية يظهر انهم ، يرون ان عملية التدرج هذه لا تعتمد على الكائنات بل على قوى فوقية (الارواح والنفوس العليا) ، فالعنصر او العناصر مثلا اذا وصل الى مزاج معين تهيأ لان تحل فيه « قوى ، او نفوس معدنية » ، ان صح تسميته الحرارة والبرودة .. الخ بالنفوس ، والمعدن اذا وصل الى مرحلة معينة صار مزاجا مستعدا لدخول النفس النباتية فيه فيصير نباتا، وهكذا بالنسبة للنبات متى وصل الى حد معين من التطور والتعقد (التخيل عند مسكويه (١٣)) فاضت عليه الموجودات العليا (العقل الفعال مثلا) النفس الحيوانية ، ثم هذا الحيوان اذا وصل الى مراحل عليا صار مستعدا لان تفيض عليه النفس الانسانية الناطقة . (١٤) وقد يخيل ـ واكرر ـ ان في هذا القول نظرية تطورية ، ولكن ليس الامر كذلك ، لان الانواع ثابتة (١٥) عندهم والفرق بين الانسان والحيوان فرق جذري ، وهو ان الانسان يملك نفسا عاقلة ناطقة اي تفكيرا ، بينما الحيوان لا يملك ذلك، وهكذا لو اجرينا مقارنة بين اقل مستوى الحيوان واعلى مستوى الانسان ، فالسلسلة مقطعة ودائما توجد حلقة فارغة تقطع الصلة او التدرج بين النبات والحيوان ، والحيوان والانسان . وجميع هذه الفلسفات تحتفظ بتعريف او حد ارسطو للانسان : بانه حيوان ناطق اي مفكر ، كعقل مميز له كنوع عن بقية الانواع دونه .

ولكي يدرك القارىء الفرق بين تصورهم هذا وبين التطورية الحديثة ، اذكر بعض نتائج تعريفهم للانسان هذا التعريف ، لقد اعتقدوا ان الانسان هو الانسان في كل زمان ومكان ، وهو عاقل منذ ان وجد وان المبادىء الخلقية ، والعقلية فطرية ، او على اقل تقدير ان استعداد الانسان البدائي والانسان العصري هو نفس الاستعداد . وجميع الفلاسفة المثاليين ، افلاطون ، ارسطو ، فلاسفتنا المسلمون ، المعتزلة ... الخ اعتقدوا بان الانسان اينما كانفهو مسؤول ويمكنه تمييز الخير والشر ، لانه يملك عقلا قادرا على التمييز ، صحيح أن افلاطون واتباعه يختلفون عن ارسطو واتباعه (من بعض فلاسفتنا مثلا) في تصور بعض هذه المسائل ، مثلا عند ارسطو واتباعه ، العلوم والاخلاق مكتسبة ، وعند افلاطون هي الى حد كبير فطرية ، وعلى سبيل التذكر والاسترجاع ، الا ان الفريقين يتفقون على النقطة المهمة التي تميزهم عن التطورية الحديثة ، وهي انهم يعتقدون ان الانسان في اي زمان يملك من الاستعداد والقدرة العقلية مقداراً واحدا ، وانما يختلف هذا الانسان عن ذاك ـ عند ارسطو وفلاسفتنا مثلا ـ بمقدار ما يتهيأ ((من ظروف التعلم والتجربة في طفولته وشبابه ، وبذلك اختلف مقدار ما خرج من هذا الاستعداد من القوة الى الفعل ـ اي من الاستعداد للتعلم الى التعلم العقلي مثلا ـ على حد تعبير الفلسفة القديمة . اما التطورية الحديثة والنظرة الجديدة الى تقدير العقل الانساني فتقوم على فكرة ان هذا الحظ من الاستعداد والقدرة للتعلم ليس واحدا عندنا وعند البدائيين مثلا . فان الانسان البدائي جدا ينخفض مستواه العقلي وقدرته على التمييز والتعلم الى مستوى جد قريب من مستوى الحيوانات العليا كالكلب مثلا (كما سنوضح بمثال فيما بعد) .

هذا التمييز القاطع بين الانسان العاقل كنوع وبين بقية الحيوانات ، كان قويا ، وكان المثاليون يصولون به ويجولون في الرد على كل من يحاول ان يفكر بعكس ذلك ، وكان خصومهم يجدون صعوبة في رده نظرا لجهلهم بمراحل تطور الانسان الضاربة في القدم والتي تمتد الى ابعد من ظهور الكتابة باحقاب طويلة ، فان انماط التفكير المعتادة التي نزاولها اليوم تشكل وحدة زمنية ضمن الفترة من اختراع الكتابة حتى الان ، فاذا اردنا ان نتعرف على تفكير من نمط آخر ، اي اذا اردنا ان نجد مستويات عقلية واطئة قريبة من مستوى اعلى الحيوانات فعلينا ان نرجع الى ماض سحيق ما كان عند الباحثين خبر عنه . ولكن العلوم الحديثة وضعت يدها على هذه المستويات ، وثبت بما يشبه اليقين ، بل هو اليقين كله ، ان ما وصل اليه الانسان من عقل وقيم وعلوم وتقدم حضاري هو نتيجة تراكمية لخبرات الانسان عبر الآف السنين قضاها البشر في عملية ما يسمى محاولة الخطأ والصواب من مستوى واطىء جدا قريب من مستوى الحيوانية .

واذا كان موضوع هذا المقال الرئيسي هو « معقولية » او « لامعقولية » الفلسفة فمن الخير ان اشير اشارة عابرة الى واحدة من قضايا وموضوعات الفلسفة القديمة وحتى الحديثة الى حد ما في بعض اتجاهاتها ، واعني بها مسألة « المافوق الطبيعي » او « اللامادي » او ان شئت « الروح » او « العقل العام » او « المطلق » . فها هنا موضوع يعتبر عصب الحياة في هذه الفلسفات ، مع انه نبت نبت ونما ونشأ حتى صار مثمرا ، ناضجا ، في عصور « ما قبل الفلسفة » حسب التقسيم الشائع ، ويمكن ان نجد اصله في « الفكر البدائي » . ومرة اخرى لا يسع المجال لذكر حتى اهم المراحل التي مرت بها هذه الفكرة عن الروح او ما فوق الطبيعي ، او الكائنات العليا ، في طور السحر ثم المذهب الحيوي العام والمتطور ، فطور الاديان ، قبل ما يسمى عصر الفلسفة ، حتى وصلت هذه الفكرة من مجرد ملاحظة البدائيين ان لبعض الاجسام تأثيرات ، ويمكن نقلها الى اخرى عن طريق السحر ، قبل تمييز البدائي بين الحي وغير الحي ، او المادة والروح ، الى فكرة عليا عن وجود روح مستقلة وغير مادية وخالدة في الاديان الناضجة ، ولذلك يجب الرجوع الى كتاب مثل كتاب هوبهوز (١٦) لمعرفة بداية التفكير وكيف ان عدم وجود المقولات التي عندنا ، مثل التمييز بين العلة

والمعلول ، والحامل والمحمول ، والصفة والعلاقة وغير ذلك ، كان اساس ظهور السحر ثم المذهب الحيوي ، ومن هذا نشأت فكرة الروح المادية ، فالروح اللامادية ، وما نشأ عن هذه الفكرة من مراحل اعلى من ظهور فكرة موجودات روحية اخرى تدريجيا حتى الوصول الى فكرة الحيوانات الالهة فالانسان الالهة فالالهة الطبيعية ، فالاله الصانع ، فالاله المشخص فتعدد الالهة ، فالاله الواحد المجسم ، فاله واحد قومي او اقليمي ، فاله واحد عالمي ... والعملية مستمرة ، ففي الفلسفات المثالية توجد صور اخرى للاله اكثر تجريدا احيانا من تلك ، مثل اله ارسطو (١٧) ، ونفس الشيء يقال عن الافكار المتعلقة بمصير النفس ووجود عالم آخر . (١٨)

وقد تسلمت الفلسفة على يد افلاطون ـ مثلا ـ هذه العقائد والافكار الجاهزة وحاولت ان تضع لها ادلة عقلية (١٩) ، او هكذا وصفت .

ومن المفيد بدلا من الدخول في هذه التفاصيل ان نستعين ببعض ما قدمه جون ديوي في محاضراته عن اصل الفلسفة ، حيث يوضح ان الفلسفة الكلاسيكية ـ تمييزا لها عن الفلسفة الجديدة ـ تنبع من الخيال والامل . يقول ديوي : « يختلف الانسان عن الحيوان الادنى لاحتفاظه بخبراته الماضية ففي استطاعته ان يحيا من جديد ـ في الذاكرة ـ ... فكل ما يحدث للمرء يذكره باحداث اخرى ... فليس الحجر بمجرد شيء مصمت يصطدم به المرء ولكنه اثر يشير الى جد من اجداده الراحلين ... فكل ما يميز بين البهيمية والانسانية بين الثقافة وبين مجرد الطبيعية « الفيزيقية » المادية ، لم يكن كذلك الا لان الانسان يستطيع ان يسجل في ذاكرته ما يقع له من خبرات .. ومع ذلك فقلما يجيء ما تسترجعه الذاكرة صورة تطابق اصلها حرفا بحرف فاننا لا نتذكر بالطبع الا كل ما يهمنا ولانه يهمنا ... واذن فحياة الذاكرة الاساسية حياة انفعالية اكثر منها عقلية عملية ... فيبدو لي ان مصدر الفلسفة التأريخي لا يتسنى فهمه الا اذا أطلنا اكثر مما فعلنا هنا في ذكر تفصيلات هذه الاعتبارات ـ يقصد حياة التخيل الاولى للانسان البدائي ـ فانا بحاجة الى ان نتبين ان حالة الوعي العادية للانسان العادي اذا ما ترك وشأنه ، انما هي حالة تتولد عن الرغبات اكثر مما تتولد عن العقل في دراسته او بحثه او تأملاته ... ان المعقولية وعدمها بعيدان كل البعد عن الطبيعة البشرية غير المدربة وان الناس محكومون بالذاكرة ، اكثر منهم بالتفكير ، وان الذاكرة ليست مجرد استرجاع لحقائق واقعية فعلية ، ولكنها تداعي معان وايحاء وتخيلات دراسية وان المعيار الذي يستعمل في قياس قيمة الايحاءات التي تنشأ في العقل ليس مطابقتها للحقيقة والواقع ولكنه ملاءمتها للحالة الانفعالية القائمة ... ومن الخطأ الجسيم ان نعد معتقدات البشر الاولى وتقاليدهم كما لو كانت محاولات علمية لتفسير ظواهر العالم ، وغاية الامر فيها انها محاولات سخيفة خاطئة . فالمواد التي تنشأ عنها الفلسفة آخر الامر ليست لها اية صلة بالعلم ... وانما هي مواد مجازية ، او رموز لما يساور الناس من مخاوف ويطوف بهم من آمال حيكت من تخيلات وخواطر ولا تدل على عالم من حقائق موضوعية نواجهها بالنظر العقلي . انها اقرب الى الشعر والمسرحية منها الى العلم ، اذ لا شأن لها بالصواب والخطأ العلميين ولا بالقرب او البعد عن الاستناد الى العقل مما نصف به حقائق الواقع ولا شأن للفلسفة بهذا ولا بذاك شأنها شأن الشعر من استقلاله عن هذا » . (٢٠)

ويبين ديوي بعد ذلك كيف تصير احلام الافراد وخبراتهم داخل الجماعة ، خصوصا الخبرات الكثيرة التكرر هامة عند الجماعة كلها ولذلك تهم اجتماعيا اي تصبح نمطا يمثل حياة القبيلة الانفعالية ويؤثر في شقائها وسعادتها ، مرضها وشفائها ، ولكن بجانب هذا المصدر الانفعالي التخيلي لم يفت البيئة ان تفرض على الاراء حدا ادنى من الصواب في الامور العملية والتجريدية مثل أن بعض الاشياء صالحة للطعام وانها توجد في مواضع معينة وان الماء يسبب الغرق والنار تحرق والاطراف المدببة تجرح ... من تغير الفصول والليل والنهار والجفاف والرطوبة ، فهذه حقائق لا بد انها فارضة نفسها حتى على انتباه الانسان البدائي ، وهكذا ظهر طرازان متعارضان لدى الانسان ، طراز تخيلي انفعالي ، وآخر علمي او عملي تجريبي ، وسيكون الثاني اساسا للصناعات والفنون والحرف والعلوم بمعناها المحدد ، وسيكون الاول اساسا للسحر والدين والفلسفة والعادات والاخلاق ، وظل الطرازان منفصلين ولم يشعر الناس بحاجة الى التوفيق بينهما « ولذا احتفظوا في اغلب الاحوال بكل نوع من نوعي الانتاج العقلي هذين منفصلا عن الآخر ، لانهما صارا ملكا لطبقتين اجتماعيتين منفصلتين الواحدة عن الاخرى ، فالمعتقدات الدينية والشعرية بعد ان اكتسبت قيمة اجتماعية وسياسية محددة كما اكتسبت كذلك مهمة محدودة في الاجتماع والسياسة ايضا ، انتقلت الى ايدي طبقة عالية تتصل اتصالا وثيقا بالعناصر الحاكمة في المجتمع . اما العمال والصناع اصحاب المعلومات المتعلقة بشؤون الحياة اليومية العادية فيحتمل ان يوضعوا في مركز اجتماعي وضيع ـ حتى ان الصانع عند اليونان ـ لا يكاد يعدو مرتبة العبد الرقيق من الوجهة الاجتماعية » . (٢١)

ويشير ديوي الى ان الطرازين التخيلي والعملي اصطدما على يد السوفسطائيين لصالح الطراز العملي العلمي وسرعان ما قام سقراط وافلاطون وارسطو بمحاولة اسناد اسس النظام الذي هاجمه السوفسطائيون عن طريق وضع عناصر العقائد التقليدية على قواعد وطيدة لا تتزعزع اركانها بايجاد طريقة للتفكير والمعرفة تخلص التقاليد وتطهرها مما فيها من أوهام وتحافظ على جوهرها الاخلاقي والاجتماعي « وجملة القول : ان ما تم على اساس العادة يجب أن يعاد النظر فيه من جديد ويستبقى لا على أساس العرف الماضي ، ولكن على اساس ميتافيزيقيات الوجود والكون نفسها فالميتافيزيقيا بديل عن العادة » . (٢٢) ويقول ديوي مستخلصا الصفات الاساسية للفلسفة التي اوضح نشأتها بالطريقة التي لخصتها قبل قليل : « فاولا ـ لم تنشأ الفلسفة بشكل نزيه بعيد عن الهوى ، من اصل سافر بعيد عن التحزب ، فقد اعدت لها مهمتها وقدمت لها من قبل ... ويفضي بنا هذا الى سمة اخرى من سمات الفلسفة نشأت عن اصلها . فلما كانت الفلسفة تهدف الى تبرير معقول للامور التي سبق ان قبلت لملاءمتها لاحوال الناس الوجدانية وقتئذ .. كان عليها ان تبالغ في العناية بامر جهاز العقل والبرهان ، ولما كانت الامور التي تعالجها خالية بطبيعتها من الاتساق العقلي ، ازدادت تمسكا بالمظهر المنطقي ... ففي البحث في الامور الواقعية العادية يصح لنا ان نلجأ الى طرق بسيطة عامة في البرهان والتدليل اما ان كان الامر امر اقناع الناس بصدق المذاهب التي لم تعد مقبولة على اساس ان العادة تقرها وان السلطة الاجتماعية تؤيدها كما انه لا يتسنى في الوقت نفسه تحقيق صحتها على اساس التجربة فعندئذ لا يكون مناص من تضخيم العلامات التي توهم بان الفكرة المسوقة بالغة الدقة » . (٢٣)

وليس هناك ابلغ تعبيرا واشد سخرية من الفلسفة الكلاسيكية من هذا المثال الذي يسوقه ديوي عن المسافات كمشكلة نروم حلها مثلا لانها تسبب المتاعب وتعزل الاحباء وهذه حالة تدعو الى السخط والقلق فتستفز الخيال وتدفعه الى تصور حالة يكون فيها اتصال الانسان غير متأثر تأثرا ضارا من جراء بعد المسافات « ولتحقيق هذا الامر طريقتان : واحدى الطريقتين ان ننتقل من مجرد الحلم بمملكة سماوية تنمحي فيها المسافات والابعاد ويصبح الاصدقاء فيها بعصا ساحر على اتصال دائم شفاف بعضهم ببعض ... الى التفكير الفلسفي فنقول ان مسالة المكان والمسافات هذه ليست الا ظواهر . وبتعبير احدث من ذلك نقول انها أمر ذاتي ، وانها ليست حقيقة من الوجهة الميتافيزيقية فما تحدثه لنا من متاعب وتقيمه في سبيلنا من عقبات ليس « حقيقيا » بمعنى الحقيقة الميتافيزيقي . فالعقول المحضة والارواح الخالصة لا تعيش في عالم مكاني ، فالمسافات غير موجودة فعلا في نظرها » ثم يتساءل ديوي بعد ذلك قائلا : « ... فهل يتضمن هذا المثال الايضاحي تشويها لطرق

الفلسفة المألوفة ، افلا يوحي الينا بان كثيرا مما يقوله الفلاسفة عن « المثالي » و « الحقيقي » اعني ذلك العالم السامي في حقيقته ليس رغم كل شيء سوى وضع حلم من الاحلام في صيغة جدلية محكمة ؟ (٢٤) ... » . ومع انني اطلت المقام مع ديوي ، فلا بد اخيرا من ايراد هذه التعليقة اللطيفة التي علق بها على قول ارسطو ناقدا لنظرية المثل الافلاطونية ، حيث يقول ارسطو : « ليست المثل رغم كل شيء سوى اشياء محسوسة اسبغنا عليها الابدية » فيقول ديوي بصدد ذلك : « افلا يجوز لنا ان نقول عن « صور » ارسطو ـ يقصد بها ارسطو العقول الفلكية المفارقة للمادة والمحرك الاول ـ ما قاله هو نفسه عن « مثل » افلاطون ؟ فما هذه الصور ، والجواهر التي ظلت تؤثر ذلك التأثير العميق في الدين وفي العلم قرونا طوالا سوى الاشياء المعهودة لنا في خبرتنا العادية وقد ازيل عنها كل ما بها من عيوب ونقائص (٢٥) ؟ ... » .

ترى كم سيبقى من « الفلسفة الاسلامية » لو اتجهنا في نقدها هذا الاتجاه الاجتماعي النفسي ؟ فهذه الفلسفة ، على اختلاف مدارسها المتراوحة بين فلسفة ابي بكر ابن زكريا الرازي الافلاطونية الذرية ، وفلسفةابن رشد الارسطية الخالصةاو تكاد مارة بالفيضيين والمتراوحين بين افلاطون وارسطو وافلوطين (٢٦) . اقول هذه الفلسفة تنهدم على أهلها لو حذفنا منها فكرة « الصور » سواء فهمت على نمط ارسطو او أفلاطون ؟ واضرب المثل بالفلسفة الاسلامية لانها قريبة من تناول القارىء العربي ، ويقيني ان نفس النتيجة ستترتب على الفلسفات المثالية المعاصرة .

يقول فؤاد زكريا : « ولقد احس الفلاسفة والمفكرون من عهد قريب نسبيا منذ حوالي قرن ونصف من الزمان ، بان الفكر المجرد لا بد أن ينتهي الى طريق مسدود ، وظهر لديهم وعي واضح بازمة الفكر الخالص » ثم يقول انه قد تأكد « ثبوت عجز العقل في مجاله النظري الخالص عن الانتهاء الى رأي قاطع حاسم في المشكلات الاساسية التي ظلت الفلسفة تشغل نفسها بها حتى ذلك الحين والتأكد من ان الحل الحاسم لهذه المشكلات انما يكون في المجال العملي لا النظري ، وهذا العامل كان نتيجة جمود مجموعة من كبار الفلاسفة على رأسهم ايمانوئيل كانت ... (٢٧) » .

وهذ الكلام يكون صحيحا اذا وضعناه وضعا واضحا فقلنا بان المقصود بعجز العقل ، العقل التأملي وارث خيالات اسلافنا البدائيين وخرافاتهم في عصور فجر الانسانية، وان مشكلات الميتافيزيقيا العويصة مشكلات لا تحل لانها وهمية . ان حل هذه المشكلات يعيدنا وجها لوجه مع صلب مقالنا ، وهو ان الفلسفة الميتافيزيقية وريثة اوهام الاقدمين وان حل ما يسمى بمشكلات « الفلسفة الاولى» يكون بالرجوع الى العلوم الاجتماعية والطبيعية الحديثة حيث سنجد بداية وبذور المشكلات الميتافيزيقية بشكلها السحري والبدائي ، ان هذه المشاكل الفلسفية العويصة محاولة متطورة لتثبيت اخطاء قديمة كانت في البداية نتيجة لعجز الانسان عن التفسير الصحيح ، او لغلط في التعليل ، أو نوعا من التعويض ، أو ضربا من التخيل ، ثم لبست اثوابا جديدة مع الزمن وقويت في الاذهان والمجتمع حتى اصبحت عوالم قائمة بذاتها مقابل العالم الواقعي المادي المحسوس (الروح أو النفس مقابل الجسد ، اللامادي في مقابل المادي ، عالم ما فوق الطبيعة في مقابل العالم والموجودات الارضية ، الكلي في مقابل الجزئي ، المطلق في مقابل النسبي ، الخالد في مقابل الفاني ، عالم ما قبل الحياة وبعد الموت في مقابل الحياة الارضية ... وهكذا) .

لقد صنع واخترع الانسان موضوعات الفلسفة هذه عبر ملايين او الوف السنين ، ولما انقطعت صلتنا بهذه الجذور لبعد الهوة وضياع اخبار الانسان البدائي واخبار من جاء بعده حتى عصر الكتابة ، وذلك قبل ظهور الدراسات والعلوم والطرق الحديثة ، ظن الانسان ان هذه الافكار او العقائد حقائق موجودة فعلا ، وصار لها فعلها ـ كما كان ـ في تصورات الانسان وفي افعاله وآماله ، وقام بعض الناس ممن اوتوا حظا من القراءة والتميز عن بني مجتمعهم بوضع هذه التركة وضعا منطقيا عقلانيا واستحقوا على هذا اسم « الفلاسفة » ، وصار من يؤمن بهذه الامور بدون عقلانية وادلة يعتبر مقلدا او بدائيا مع ان جوهر المشكلة واحد ، ومع ان الاثنين امام اوهام . وانا اعتقد ان تعقل وتعقيل الاوهام أشد امعانا في الوهم وابعد عن العقلانية الصحيحة الواقعية ، وما مثل هذا الا مثل شخص ولنفرض انه (آ) يريد الوصول الى غرب مدينة ما معلومة ، ثم اتجه اول خطوة في طريق معاكس وصل الى شرقها ، ثم جاء شخص آخر هو (ب) فسار أبعد منه في نفس الطريق الخاطيء وصار يبعد عن الاول عدة فراسخ في اتجاه الشرق ، ولكن الفرق بين الاثنين ، ان الاول اي (آ) لا يعرف انه يسير في طريق خاطيء ، بينما (ب) يحاول ان يقدم الادلة ـ رغم تنبيه الاخرين له انه مخطيء ـ المنطقية على انه يسير في اتجاه غرب المدينة ، ترى ايهما سيكون اكثر خطأ ووهما . هذا هو حظ معظم الفلسفات الكلاسيكية ، والمثالية المحدثة سواء كانت قائلة بوحدة الوجود ام بالثنائية .

فنحن اذن امام ظاهرة طريفة تفيدنا كل الفائدة في تحري مدى سلامة تعريف الفلسفة بقصرها أو الذي يقصرها على « العقلانية » ، وعلى فترة جد متأخرة من تاريخ الانسان الطويل ، وهذه الظاهرة هي أن عين ما اشترط فيه العقلانية اعني الفلسفة تمييزا لها عن عصور ما قبل الفلسفة حسب التقسيمات المألوفة ، يبدو خلوا من العقلانية واعادة للخط التخيلي الذي اعتبر « قبلا » لعصر الفلسفة . ومعنى ذلك انه يجب علينا ان نهتم في تعريفنا لكل فعاليات الانسان ومنها الفلسفة ليس ببنائه ـ اي التعريف ـ على اساس معقولية هذه الفعاليات بل على اساس انها موقف .

وعندي ان المبرر لهذا النوع من التعريف جملة اعتبارات : ـ

الاول : هو مسألة وضوح ـ فقد تبين لنا مما سبق بشكل عام ان الفلسفة ـ على الاقل المثالية ـ لا عقلية في جذورها وتطورها ، ولا علمية في مشاكلها الميتافيزيقية ، وقد اقترنت عند الاكثرية بمعنى «العقلانية» والتفكير العميق الجاد مع أن هذا ليس حقيقيا ، وعلى ذلك فليس من الصحيح أن نعرف الفلسفة بالاستناد على كل ما يتصل بالتفكير بصلة ، كأن نقول انها : التفكير العميق ، أو دراسة الكون دراسة عميقة ، أو حل اسرار الكون او معرفة حقيقة الاشياء ، او معرفة الموجودات بما هي موجودات ، أو هي النظر في حقائق الاشياء ، أو معرفة الحقيقة ، فقد رأينا أن مهمتها دون ذلك بكثير ، فهي ، بقدر ما يتعلق الامر بالفلسفة المثالية ، ومعظم الفلسفات القديمة ـ الا ما ندر ـ مثالية ، اقول ان مهمة الفلسفة ـ وارجو الا يخطيء القاريء الفلسفة التي اقصد ، والا يخلطها بالفلسفات العلمية الواقعية ، وهي امر جديد النشأة والتكوين ـ هروبية ، وتبريرية لكل ما يمت الى المحافظة والتقاليد والخط اللاعلمي واللاعملي ، فلم يبق وقد زال ما بينها وبين عقائد الناس العاديين وافكارهم الا ان نعرفها بانها موقف .

الثاني : ان قولنا بان الفلسفة موقف يتجاوز الهوة الوهمية التي وضعها غرور الانسان بينه وبين الحيوانات من جهة وبينه وبين من قبله من البدائيين من بني جنسه ، وقد اثبتت دراسة المجتمعات وعلم النفس وسواهما من العلوم الحديثة على ان تفكيرنا يتوقف على جملة مسائل زمانية وتكوينية للمفكرنفسه ، وعلى مخلفات مواقف اجدادنا الضاربين في القدم ، فالفكر نفسه منفعل ونتيجة لموقف ،لوضعيه وليس نابعا من لا شيء ، ومعنى ذلك انه لا يوجد زمن معين وشعب معين عنده بدأت حدود الفكر ومعه اصبح الانسان عاقلا ، بل ان عقل الانسان متصير ابدا ، وتطوره درجي متصل وممتد الى اعماق الماضي فنجد بذور التعقل ممتدة في اعماق تأريخ الانسان ونجد بقايا اللاعقلانية ممتدة في معظم الفلسفات تقريبا كما سنوضح .

الثالث : قولنا بان الفلسفة موقف لا ينفي الجانب الفكري عن الفلسفة ، وانما يعني ان الفلسفة هي ليست فكرا وعقلانية فقط ، بل

هي مجموعة عوامل ، الفكر احدها بجانب عوامل اخرى يتكون منهـــا الموقف مثل العواطف والعوامل البيولوجية للفرد والمحيط الخارجي الاجتماعي والطبيعي وعلى نطاق الفرد فان تبني الفيلسوف أو أي فرد لهذا الرأي او ذاك يعبر عن مواقف معقدة وحالات لاشعورية جاهـــزة فيه نتيجة لنشأته وتكوينه وظروف زمانه ومكانه ، وان تعقيلها ان هو الا خطوة لاحقة بعد ان نشأ وكبر ، وبعد ان تكون اتجاهاته العامة قد رسمت وحددت في وقت سابق على تعقله او تعقيله لها ، والانسان على كل حال كما انه لا يختار جنسه وزمانه ومكانه ولون عينيه واستعداداته للمرض او نظم الشعر ، كذلك فهو لا يختار افكاره واخلاقه ، الانسان لا يفكر ثم يكذب او يحب ، بل تنشأ عنده هذه ثم يتعقلها وقد لا يفعل، الانسان لا يجلس في غرفته ويقول : هل اكون مؤمنـــا أو ملحدا ، رأسماليا أو اشتراكيا . واذا كنت اصر على ان الانسان ــ على الاقـــل كما نعرفه اليوم والامس ــ كائن لا عقلاني وان عقلانيته تكون جزءا يسيرا من مواقفه ، وانها من جهة اخرى نسبية وتنمو على شكل دايلكتيلي ، وعلى اساس الخطأ والصواب ، فينبغي هنا ملاحظة شيء هام يبعـــد القاريء عن ان يتصور انني ارى ان كل ما وصل اليه الانسان هو مجرد اوهام ومحض لا عقلانية ، وتكفي هنا الاشارة الى التمييز الذي نقلته عن ديوي بين طرازين من طرز التفكير أو الانتاج الحضاري الذي وصل اليه الانسان ، ففي الجانب العملي التجريبي والذي استمر صاعدا مكونا العلوم المعروفة بمعناها الاصطلاحي مثل علوم الطبيعة والطـــب والهندسة .. الخ ، وعلى العموم مكونا التقـدم الملحوظ فـــي الجانب المادي ، يوجد شيء ليس وهما لانه نتيجة التجارب والعمل والفروض العلمية التي يمكن تحقيقها والتحقق منها ، وقد صاحبها تقدم مماثل الى مد ما في فهم علاقات الانسان مع جنسه في الاخلاق والقوانين .. الخ .

الرابع : قولنا بان الفلسفة موقف ، لا يعني ان كل موقف فلسفة، اذا حددنا الفلسفة بالتفكير المبني على مقدمات العلوم مثلا ، ولكن كل فلسفة موقف . اما اذا اعتبرنا الفلسفة شاملة لانماط التفكير المبنية على الفروض والتخيل والآمال ايضا ففي هذه الحالة كـل فلسفة موقف وكل موقف فلسفة ، وكما ان المواقف مختلفة ، موقف البدائي مثلا من المرض الذي يحاول بالقرابين او بالسحر ابعاده يختلف عن موقف من يرجعه الى مكروبات معينة لها علاج معين مجرب علميا ، فكذلك وصفنـا لمواقف البدائيين كفلسفة كنمط تفكير ، لا يعني ان الفلسفة هي في كل زمان ومكان كذلك ، فهناك اتجاه قوي في الوقت الحاضر الى بناء فلسفة علمية تقوم على مسلمات العلوم وحدها دون التورط في الآمال والخيالات وادخالها كجزء في بنائها .

والخلاصة ان الذين يصرون مع كل ما مر على رفض ان يسمـوا فلسفة مواقف البدائيين ، ويحصرونها ــ أي الفلسفة ــ في فترة لاحقة ثم يوافقوننا مع ذلك على ان معظم فلسفات ما قبل « الدارونية » وما بعد من فلسفات مثالية هي ليست سوى عقلانية كاذبة لانها مستندة على تبرير مواقف البدائيين ، وان حظ الانسان من العقلانية حتى الان ضئيل ، وانه بدأ يسير في خطه الصحيح بشكل علمي منـــذ عشرات السنين فقط ، يكونون قد وافقونا في الجوهر ، واختلفوا معنا فـــي التسمية فقط . (البقية في العدد القادم)

حسام الالوسي

الحواشي

١ ــ جون ديوي : تجديد في الفلسفة ، ترجمة امين مرسي قنديل، مكتبة الانجلو المعدية (بلا تاريخ) .

٢ ــ تنبغي الاشارة الى محاولة لايصال جوانب من هذه الصيحات الى الفكر العربي في كتاب : زكي نجيب محمود : «خرافة الميتافيزيقيا» النهضة ١٩٥٣ ، وكتابه الاخر : نحو فلسفة علمية ، القاهرة ١٩٥٨ .

٣ ــ اي بارجاعها الى « فيلوصوفيـــا ، او فيلوصوفي » أو « فيلوسوفيا » انظر مثلا :

The Encyclopedia of Philosophy - under Philosiphy - Vol - 6 . P . 216

٤ ــ عرضت لتقسيم افلاطون وارسطو وبعض فلاسفتنا للعلوم في مقالي : « تقسيم العلوم عند اخوان الصفا ومكانة الفلسفة في ذلـك التقسيم « مجلة الاجيال » العدد الحادي عشر ١٩٦٧ ، ص ٢٧ فما بعد ، و « تقسيم العلوم ومكانة الفلسفة حتى ابن سينا » مجلة « الاستاذ » ١٩٦٨ .

٥ ــ ينظر مثلا لمعرفة التعاريف المختلفة للفلسفة،وصعوبة التعريف: أزفلد كوليه : « المدخل الى الفلسفة » ترجمة ابي العلا عفيفي القاهـرة ١٩٦٥ ، الباب الاول ، الفصل الثاني ، والباب الرابع ، الفصل الحادي والثلاثون . وبالنسبة لتعريف فلاسفتنا لها انظر (٤) أعلاه .

٦ ــ رابوبورت : « مباديء الفلسفة » ترجمة احمد امين ، ١٩١٨ ، الكتاب الاول الفصل الاول .

٧ ــ « Encyclopedia of Religion and Ethics » . under : Evolution (Ethical) Vol - 5 . P . 626 .

٨ ــ Hobhouse : « Morals In Evolution » . London , 1951, Part I . ch . 17 P. 218 .

٩ ــ ديوي ، كتابه السابق ، الفصول الاول والثاني والثالث . وهوبهز ــ اعلاه ــ القسم الثاني ، خصوصا الفصل الاول والثاني .

١٠ ــ See : Wester mark : The origin and Development of The Morals Ideas . London , 1906 ; and , Huxley . T. H : Evolution and Ethics , London , 1894 , or 1943 .

١١ ــ أندريه كرسون : « المشكلة الاخلاقية والفلاسفة » ترجمـة عبد الحليم محمود وابو بكر زكري ، القسم الاول ، الطبعة الثانية ، ١٩٥٢ ، في مواضع متفرقة خصوصا : ص ٢٢ فما بعـــد ، ص ١١٧ ، ص ١٤٤ ، ١٤٦ فما بعد ، والقسم الثاني ، ص ٥٧ ، ٥٩ ــ ٧٣ ،

١٢ ــ E. R. E. See note 7 . above Also : Hobhouse , op. cit, Part - I . Ch. I . P. I - 10 , Part II , Ch. I. P. 385 .

١٣ ــ مسكويه : الفـــوز الاصغر ، مصر ١٣٢٥ ، ص ٧٦ ــ ٨٧ ، وتهذيب الاخلاق ، مصر ١٩٠٥ ، ص ٧٩ ــ ٨٦ .

١٤ ــ حول تفاصيل هذه الاقوال والمصطلحات يراجع كتابنـــا : حوار بين الفلاسفة والمتكلمين ، بغداد ، ١٩٦٧ ، القسم الاول ، والقسم الثالث ، حاشية (١١) على ص ٢٣٦ .

١٥ ــ ديوي : كتابه السابق . ص ١٢٩ ــ ١٣٢ . حيث يقدم نقدا مماثلا لفلسفة ارسطو في هذه النقطة .

١٦ ــ Hobhouse : op. cit , Part II , ch. I. P. 365 ff .

١٧ ــ انظر بالعربية : يوسف كرم : تاريخ الفلسفة اليونانية ، طبعة ثالثة ،القاهرة ١٩٥٣ ،ص ١٧٧ فما بعد خصوصا ص ١٨٠ فما بعد.

١٨ ــ Hobhouse : op. cit , Part II , ch. II , note 4 , on. P. 432 ff .

١٩ ــ Zeller - E. : Plato and The older Academy , Tr. Into English , by Sarah . F. Alleyne ... London , 1876 .

ويوسف كرم : كتابه السابق ، عند كلامه عن افلاطون .

٢٠ ــ ديوي : كتابه السابق ، ص ٥٦ ــ ٦٤ .

٢١ ــ كذلك ، ص ٦٤ ــ ٧٢ .

٢٢ ــ كذلك ، ص ٧٣ ــ ٧٨ .

٢٣ ــ كذلك ، ص ٧٩ ، ٨٢ .

٢٤ ــ كذلك ، ص ٢١١ ــ ٢١٢ .

٢٥ ــ كذلك ، ص ١٩٣ ــ ١٩٤ .

٢٦ ــ كتابنا : حوار بين الفلاسفـــة والمتكلمين ، ص ١٠ ــ ١٢ ، ومواضع مختلفة في الكتاب .

٢٧ ــ الفكر المعاصر ، عدد ٤٣ ، ١٩٦٨ .